ـبابا فرنسيس حول العناية بالبيت المشترك

يتعيّن، بعد تحديد حجم المخاطر ومساءلتها من موقع القيم الإيمانية، البحث في الجذور العميقة للمشكلة، كي لا يقف التحليل في مستوى الأعراض، وهذه الجذور ترتبط أساسا بالهيمنة المطلقة للتكنولوجيا. ذلك أن العصر الحديث حقّق على مدى قرنين طفرة تكنولوجية غير مسبوقة تضمنت الكثير من الإيجابيات لكنها تضمنت أيضا العديد من المخاطر، سواء من ناحية الإبداعات التكنولوجية ذاتها أو من ناحية الجهات التي يمكن لها أن تتصرف بهذه الإبداعات تصرفا غير سليم. لقد تطورت القدرة التكنولوجية للإنسان دون أن تتطوّر تربيته القيمية وقدرته على ضبط تلك القدرة. وأصبح الناس متعودين على أن يعهدوا للسياسات التكنوقراطية بمهمة حلّ مشاكلهم، وهيمنت هذه الرؤية على الاقتصاد الذي ربط التطور التكنولوجي بالأرباح المترتبة عليه ولا غير، واعتبر السوق وحدها قادرة على ضمان التطور الإنساني والاندماج البشري. لقد وضع الإنسان الحديث نفسه في مركز الكون، ثمّ جعل العقل التكنولوجي فوق كل الحقائق الأخرى، فانتهى إلى الخضوع الكلّي لهيمنة التكنولوجيا.

لا يمكن اليوم حلّ مشاكل البيئة إلاّ بموقف جديد يقوم على إخضاع التكنولوجيا للقيم والسعي إلى إنشاء «إيكولوجيا شاملة» تضمّ المجال البيئي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي وتتنزّل في الحياة اليومية للإنسان. وكلّ القرارات التي تتخذها السياسات العامة ينبغي أن تدرس من كلّ وجوه تأثيراتها على الإنسان وعلى غيره من الموجودات في الكون، كما لا توجد قرارات نمطية يمكن أن تطبّق دون الأخذ بعين الاعتبار اختلاف السياقات والثقافات. وبعبارة أخرى، لا يمكن تسليم إدارة بيتنا المشترك للتكنوقراط، بل ينبغي أن يدار حسب ما يتوصّل إليه الحوار بين مختلف مكوناته الثقافية والدينية والفلسفية، وما يتحدّد في ظلّ هذا الحوار من قيم وأهداف مشتركة، وما يقع الاتفاق عليه عندما يطرح على الجميع سؤال: أي عالم سيرثه عنكم أطفالكم؟

وقد تتضمنت الوثيقة مجموعة من التوجيهات والمقترحات العملية المساعدة على حلّ المشكلة. وأهمّ ما ينبغي مراعاته في هذا المجال أن تكون كلّ الحلول المقدمة ذات صبغة شاملة ولا تحقّق مصالح جزء من البشر على حساب جزء آخر. وثمنت إنجازات سابقة في مجال البيئة، مثل قرارات مؤتمر الأرض سنة ١٩٩٢، ومعاهدة «بال» العالمية حول مراقبة التخلص من النفايات السامة، ومؤتمر الأمم المتحدة حول التنمية المستدامة سنة ٢٠١٢. بالمقابل، شكّكت في بعض القرارات الأخرى مثل تبادل «صكوك الكربون» بين الدول الغنية والفقيرة. كما دعت الوثيقة البلدان الغنية إلى تحمّل الأعباء الإضافية التي تترتّب على تطبيق سياسات إيكولوجية في البلدان الفقيرة، وتوقيع معاهدات دولية في مجال حماية البيئة وإنشاء هيئات مراقبة ذات فاعلية وجدوى، وتشجيع الطاقات البديلة، وإلزام كل المشاريع الكبرى بتقديم دراسة محايدة في الآثار البيئية قبل البدء في إنجاز المشروع، والجرأة

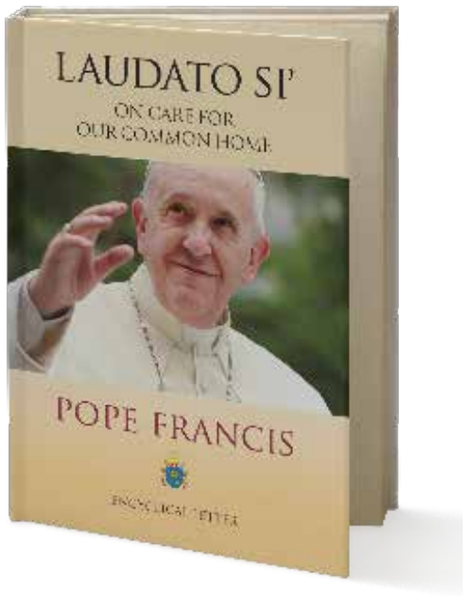

على اتخاذ قرارات تحدّ على الإفراط في الاستهلاك، ولو لم تكن شعبية.

ويبقى الأهمّ في هذا كلّه رفع وصاية الاقتصاد والربحية والاستهلاك على إدارة السياسات العامة ودعوة المؤمنين في العالم كلّه، وهم الأغلبية من البشر، على أن يوحّدوا بين إيمانهم وأعمالهم ويتجنّبوا كل ما فيه ضرر بغيرهم، وأن يتحرّروا من الشعور بالخوف والضياع والأنانية الذي يغمر العالم الحديث المتحرّر من القيم ويعتصموا بالإيمان للتخلّص من الأنانية ويتخلصوا من نمط الحياة القائم على الاستهلاك المفرط وأن يجد كلّ أتباع دين في تراثهم الديني والروحي ما يُسهّل عليهم تحقيق هذا الغرض.

اعتقد أنّ المسلمين سيوافقون البابا على الجزء الأكبر من تحليله للوضع البيئي وكوارثه الحالية، وعلى الحلول التي يقترحها لإصلاح هذا الوضع، فالإسلام أيضًا يعتبر الإنسان متصرّفا في الأرض وليس مالكا لها، وفي القرآن الكريم آيات عديدة في معنى التسبيح الكوني للخالق: «تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا» (الإسراء: ٤٤)، وكلّ الأديان عموماً تنبذ الأنانية والفساد. ففكرة قيام حوار بين الأديان والفلسفات تتخذ لها محاور واقعية من حياة الإنسان، مثل محور البيئة، فكرة جيدة وقد تساهم في إخراج حوار الأديان من التكرار أو خطابات المجاملة وتجعله وسيلة لتحقيق منافع حقيقية للبشرية جمعاء. وقد أصبح من باب المسلمات اليوم بين الفاعلين في هذا الحوار أنّ الغاية من الحوار ليست تغيير العقائد بل البحث عن مواطن الاشتراك ودفع الجميع إلى العمل معاً في ما يمكن الاتفاق حوله.

وتمثل قضية البيئة، مثل قضايا أخرى (مكافحة الجوع والأوبئة واستغلال الأطفال...) ميادين متميزة لهذا العمل المشترك، حيث يمكن لكل الأديان والمذاهب أن تصبح عامل ضغط قوي يدفع الساسة وأصحاب القرار إلى اعتماد سياسات متوازنة وبعيدة المدى، وينشر الوعي لدى الرأي العام بأهمية هذه القضايا وخطورتها على مستقبل الإنسان، ثمّ خاصة يعدّل من تصرّف الإنسان الحديث المنغلق في الاستهلاك دون تقدير للعواقب على الأجيال القادمة.

ومن المهم أيضاً أن تنفتح السلطات الدينية على النقاشات الدائرة بين الخبراء والعلماء في تحديد المخاطر الحالية على الكون، ونعلم أنّ هذه النقاشات تتميّز أيضا بالكثير من الخلافات، فالبعض يضخم هذه المخاطر والبعض يقلّل من شأنها، وقد تبنت الوثيقة بجرأة الطرح الأوّل، مع أنّها تفادت الدخول في تحديد الأرقام والنسب، وهذا يعني أن حوار الأديان ينبغي أن لا يقتصر، في هذا الميدان أو غيره، على رجال الدين فحسب، بل يكون أكثر فائدة إذا تفاعل مع الخبراء والعلماء للاستفادة من بحوثهم وتشخيصهم للوقائع ومقترحاتهم للإصلاح.

ولقد تجنبت هذه الوثيقة الحديث باسم الأديان الأخرى، لكنها قامت على افتراض إمكانية أن تلتقي كلّها على نفس المبادئ العامة، فاكتفت بعرض المبادئ المسيحية، وهذا أمر مفهوم ومنطقي، فلا نجد إلاّ إشارة عابرة لموقف متصوّف مسلم. لكن من الواضح أن حوارا بين الأديان يتخذ له محورا قضية البيئة يمكن أن يمثل فرصة ثمينة لتطوير وجهات نظر دينية مختلفة ومتقاطعة في هذا الموضوع. وأخيرا، نلاحظ أنّ الوثيقة قد استعملت مرّة واحدة عبارة «التراث اليهو-مسيحي»، غير أنّ هذه العبارة حديثة ولا شكّ أنها لم تكن مستعملة لدى القدامى، مثل فرنسيس الأسيزي، ونفضّل من موقعنا الحديث عن التراث «الإغريقي-التوحيدي» المشترك الذي صاغ في القديم أطروحة التجانس الكوني والتسخير والعناية الإلهية في صياغتين، فلسفية ودينية، نجدها لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين على حدّ سواء، وينبغي أن يضاف إليها اليوم الرافد الشرق-آسيوي (الهندوسية، الكنفوشيوسية، البوذية...) الذي يدافع عن المبدأ ذاته ولكن من منطلقات ومقولات ومفاهيم أخرى. وبذلك يتحقّق الإجماع الديني الكوني على ضرورة حماية «بيتنا المشترك» الذي يتعايش تحت سقفه أتباع كل الأديان والمذاهب.

الكتاب: رسالة عامة بابوية: «كن مسبّحا» (Laudito si')
المؤلف: حضرة البابا فرنسيس حول العناية بالبيت المشترك
لغة الكتاب: الأصل بالإيطالية مع ترجمات رسمية للفرنسية والعربية والإنجليزية والإسبانية إلخ
الناشر: حاضرة الفاتيكان/ ٢٤ مايو ٢٠١٥ (Libreria Editrice Vaticano).

● أستاذ كرسي اليونسكو للدراسات المقارنة للأديان

رسالة عامة بابوية: «كن مسبّحا» لحضرة الـ

محمد الحدّاد

تشهد العاصمة الفرنسية باريس، في بداية شهر ديسمبر ٢٠١٥، انعقاد المؤتمر العالمي للمناخ الذي تعلق عليه آمال كبيرة. وسيمثل المؤتمر فرصة للعديد من المشاركين للاطلاع على وثيقة من نوع خاص، هي الرسالة العامة للبابا فرنسيس، رئيس الكنيسة الكاثوليكية، حول العناية بالبيت المشترك، وقد صدرت في مايو ٢٠١٥، واتخذت عنواناً لها «كن مسبحا»، وهي عبارة مقتبسة من نشيد ديني للقديس فرنسيس الأسيزي (١١٨٢- ١٢٢٦) الذي يشترك مع البابا في الاسم وفي الاهتمام بالبيئة.

يدفعنا إلى تقديم هذه الوثيقة الطابع الحواري الذي اعتمدته، إذ اختار البابا أن يتوجّه برسالته إلى كلّ المخلصين من البشر ولا يجعلها خاصة بالمسيحيين، باعتبار أنّ مصير الجميع مرتبط بمصير الأرض، لذلك وصف هذه الرسالة بأنّها دخول في الحوار مع كلّ أفراد «بيتنا المشترك». ولقد انطلقت الوثيقة من النشيد المذكور الذي يحمد الربّ على أنّه وهب الإنسان هذه الأرض التي يصفها بالأخت وبالأمّ، وهي التي تصرخ اليوم وتئن من وجع الأضرار التي لحقت بها جراء الاستعمال غير المسؤول والاستغلال الفاحش لما وهب الله فيها من خيرات. لقد نسي الإنسان أنّ الأرض هبة من الرب وجعل يتصرّف فيها تصرّف المالك المهيمن، فوقعت ضحية لما تحمله قلوب البشر من نزعات عنف، كما نسي أيضًا أنّ جسده لا يعدو أن يكون تركيبة من عناصر من هذه الأرض. فما هي المضامين التي يقترحها البابا لهذا الحوار؟

لعلّ أهمّ ما يُميّز هذه الدعوة قناعة صاحبها بأن إنقاذ بيتنا المشترك لا يمكن أن يحصل إلاّ باتحاد كل الأسرة البشرية للقيام بذلك، وقناعته بإمكانية تحقّق هذا الاتحاد وتحقيق الإنقاذ قبل فوات الأوان. ومن هنا تتنزّل الدعوة إلى الحوار من أجل تحقيق هذا الهدف المشترك. لقد ظهرت منذ عقود الحركة الإيكولوجية وحقّقت العديد من المكاسب لكنّ جزءا هاما من البشر لم يع بعد بأهميّة هذا الموضوع، فلا بدّ من بناء تضامن كوني يشمل عددا أوفر من البشر، من خلال توجّه كل مرجعية دينية وثقافية إلى أتباعها ومريديها ودفعهم إلى الانخراط في هذه المهمة الحاسمة.

ويتّضح من خلال التحاليل والدراسات التي قام بها العلماء أنّ الأرض تعاني من استغلال مفرط لخيراتها، وأنّ هذا الإفراط لا يفرضه بالضرورة تنامي أعداد البشر أو ضرورة توفير وسائل العيش لهم. ولقد فقد الإنسان الحديث إيمانه المطلق بالتقدّم وأصبح ينظر إلى التحوّلات بعين ناقدة. وهو يرى اليوم أنّ التلوث أصبح يحيط بالجميع ويهدّد البيئة والصحّة ويتسبب في ملايين الوفيات. وتلقي سنويا مئات ملايين الأطنان من الفضلات البعض منها مضرّ بالبشر، والبعض الآخر غير قابل للانحلال في الطبيعة. وإذا قارنّا النظام الطبيعي وبالنظام الصناعي السائد حاليا، أدركنا كيف أنّ الأوّل قائم على التكامل، بينما يعجز الثاني عن إعادة استعمال ما يلفظه أو يتخلّى عن استهلاكه. ولقد أصبح المناخ يعاني من اضطرابات عديدة أبرزها الاحتباس الحراري، ولم يعد قابلا لاستيعاب نمط الحياة السائد، إذ يمثل هذا النمط، وتحديدا إنتاج الغازات السامة، السبب الرئيسي لهذا الاحتباس، إضافة إلى تراجع مساحات الغابات والزراعات في العالم. ولقد ترتّب على هذه الاضطرابات موجات من الهجرة التي لم تعد خاصة بعالم الحيوانات، لكن أصبحت تشمل المجموعات البشرية أيضا، والأدهى أن الجماعات البشرية التي تضطر إلى الهجرة لأسباب مناخية لا تحظى بأيّ اعتراف من القوانين الدولية إذ لا تشملها صفة «اللاجئ».

ومن المخاطر الأخرى التي تحدق ببيتنا المشترك تراجع الموارد الطبيعية، ولعلّ الماء يمثل الحالة الأبرز لأهميته القصوى في حياة البشر، وقد أصبحت الملايين منهم محرومين منه اليوم، لاسيما في البلدان الفقيرة. كما أنّ جودة الماء أصبحت ضعيفة في أجزاء كبيرة من العالم، وتكاثرت الأمراض والأوبئة المترتبة على شرب المياه غير النقية أو التي لم تتمّ معالجتها بالكيفية المطلوبة. ومن المخاطر أيضًا تراجع التنوّع الطبيعي واختفاء الكثير من النباتات والحيوانات وإمكانية اختفاء أعداد أكبر في المستقبل، لا سيمّا في ظلّ التوظيف العشوائي للغابات والأراضي واستعمال المواد الكيميائية للترفيع من الإنتاج، بل بلغت أيضاً حدّ تلويث المحيطات والبحار والأنهار وتهديد الأجناس التي تعيش فيها وقد تصبح المحيطات قريبًا مقابر مائية بعد أن كانت آية من آيات روعة هذا الكون وجماله.

ولقد تدهور عيش الإنسان بسبب التوسع غير المحكم للبناءات وغياب المناطق الخضراء في الأحياء الجديدة. ولا شكّ أن ما تشهده الأحياء الفقيرة خاصة من عنف وانتشار المخدرات وتصدّع الروابط الأسرية هو من نتائج انهيار التوازن بين الإنسان ومحيطه. والأدهى أن رسائل الاتصال الحديثة (الإنترنت، شبكات التواصل الاجتماعي...) تزيد الوضع تعقيدا بتحويل التواصل إلى عملية لهو، وتحول دون التفكير والحوار والاستماع إلى أصوات الحكمة. وتعمّق هذه المخاطر التفاوت بين البشر، فهي لئن كانت تسيء إليهم جميعاً فإنّ إساءتها للشرائح الأكثر فقرًا هي الأعظم، وبدل محاولة تحسين أوضاع الفقراء فإنّ السياسات الدولية تكتفي بتوجيه برامج تحديد النسل بينهم. ويكثر الحديث دائمًا عن مديونية الدول الفقيرة للدول الغنية، لكن نادرا ما يقع الحديث عن مديونية الدول الغنية في مجال تلويث المحيط وضرورة أن تعوّض بقية العالم على ما أحدثته صناعاتها من كوارث.

إنّ الأرض تئنّ وتصرخ ولكن ردّة فعل أبنائها مازالت محتشمة خجولة، لأنّ السياسات العامة واقعة تحت سطوة التكنولوجيا والمال، والأوساط الاقتصادية تعمل جاهدة على التقليل من وقع الكارثة. وتحمّل الوثيقة بوضوح مسؤولية هذه الكوارث للجهات التي تستفيد أكثر من غيرها من المنظومة الحالية، وتسعى إلى التقليل من أهمية القضية الإيكولوجية والتشكيك في المعطيات المتصلة بها. ولقد أصبح تدخّل المرجعيّات الدينية مطلوبا، لا فقط إيقاف هذا الانهيار، ولكن أيضًا لتفادي أن تؤدي الوضعية البيئية إلى حروب طاحنة بين البشر.

وقد عرض البابا بعد هذا التشخيص للوضعية البيئية للعالم مبادئ الرؤية الإنجيلية للخلق. ومن الطبيعي أن يتساءل القارئ غير المسيحي عن سبب هذا العرض في وثيقة أعلنت أنّها موجهة لكل البشر، ومنهم من لا يؤمن بوجود الخالق من الأصل، ويبرّر البابا ذلك بضرورة فتح الحوار بين الدين والعلم، وضرورة الانفتاح على مختلف التأويلات الممكنة للواقع، فتقديم رؤية مسيحية لا يعني اعتبار هذه الرؤية الوحيدة الممكنة، وإنما يعني إثبات التزام المسيحيين مع غيرهم بالتصدّي للكارثة الإيكولوجية من موقع الإيمان. وتقوم هذه الرؤية على العناصر التالية:

التصوّر الديني لخلق الكون والإنسان، باعتباره منحة إلهية، واعتبار وجود الكون سابقاً على وجود الإنسان، واعتبار الإنسان مسؤولاً عن الأرض التي سخرت له، وعلى هذا الأساس تؤوّل الوثيقة العديد من السرديات في الكتاب المقدّس تأويلا إيكولوجيا.

السرّ الكوني الذي يجعل مفهوم الكون أوسع من مفهوم الطبيعة، ويربطه بأبعاد ليست كلها مدركة إدراكاً تامًا للإنسان، وبحضور إلهي متسمرّ يضمن تواصل كل الموجودات وتطورها، وبقيمة ذاتية للكائنات الأخرى التي تشارك الإنسان الوجود في الكون وليست مجرّد ممتلكات له.

ج- مسؤولية كلّ المخلوقات في المحافظة على التجانس في الخلق كلّه، واعتبار الكون كتاباً إلهيًا سامياً يوجّه الإنسان لتمجيد خالقه.

د- التشارك الكوني الذي يدفع إلى شعور الإنسان بأنّه في علاقة مع أخيه الإنسان يقاسمه المسؤوليات ويرفض إقصاءه أو تجاهل مصيره.

هـ- اعتبار الملكية الفرديّة محدّدة بالغاية الكونية من وجود المخلوقات، وبتساوي كلّ البشر في الكرامة، وبمسؤوليتهم جميعًا في المحافظة على البيئة التي تمثل مكسبا مشتركا.

و- أقوال السيّد المسيح المتضمنة في الأناجيل والتي تحثّ على العيش المتجانس مع الكون والمخلوقات، وسرّ المسيح الحاضر في الكون كلّه.